

العودة المتخيلة - المستقبل

رفقة أبو رميلة*

قافلة العودة الطباقية**

العودة كلمة في حالة حركة

إنها تشبه قافلة من صور أفلام تتوالى إطاراتها بلا انقطاع واحداً بعد الآخر، وكل صورة متحركة تمر تحمل في طياتها طبقات أخرى متشابكة. فكل إطار منها يفيض بأجزاء من كلمات وصور وأصوات وضجيج وحكايات وقصص تاريخ وأماكن وذاكرات وعلاقات. هذه القافلة الطباقية التي تحمل سبعين عاماً من الطبقات المسلوبة تسير بخطى مثقلة بعد أن فقدت قدرتها على إحصاء عدد الأطر المتتالية في كل ثانية. هناك حركة حتى في الكلمة نفسها، في فعل العودة والإعادة. فهي تتضمن ليس فقط الحركة في اتجاه العودة واحتمالاتها، بل هي أيضاً حركة في اتجاه تحقيق المعنى النهائي للفعل، أن نعود. وما يربط هذه الحركات المرتعشة والأجزاء الهشة هو إطار شامل لقصة تجمع بين الفقد والحب والألم والأحلام والأمل والمقاومة وما بينها من آلاف الأطياف ودرجات التنوع.

العودة كلمة في حالة انتظار

إنها تحتوي على حوار الماضي مع الحاضر، وحوار الموتى والأحياء، وتضم الناس والأماكن والحيوانات والبحار والأشجار والنباتات والفواكه. إنها أرض لقاء لا ينقطع من الأصوات، تستجمع سبعين عاماً بطولها. وكل منها حاضرة بالقدر نفسه، بعضها يتحدث بلغات الصمت، والبعض الآخر بضجيج من الأصوات، وبعضها بأصوات جديدة غير مسموعة دائماً. إن اللغات المتنوعة للخسارة تملأ المشهد الصوتي للشئات بحوارها الآتي والغادي، وتنافرها عبر الزمان والمكان.

* أستاذة مساعدة في كلية التاريخ - جامعة برلين.

** ترجمتها عن الإنجليزية صفاء كنج.

تتشكل الأصوات المتعددة من الصمت والصوت والكلام في الماضي والحاضر فيما يشبه ملتقى من الشرود الذي تحمله القافلة الطباقية. يحمل هذا النسيج المغزول من الأصوات قدرة تزامنية تتحدى الزمان والمكان. قد تكون العودة "خارج المكان" مثلما عنون إدوارد سعيد سيرته الذاتية، لكنها أيضاً خارج الزمان. وبعد أن أرغمت على أن تكون خارج الزمان والتاريخ والجغرافيا تقتطع العودة القائمة في الانتظار لنفسها نوعاً من الحرية والمتعة في الموقنات التي تعيش معاً. إن تزامن الحاضر الأبدي يعني أن أصوات الهنا والهنالك؛ الداخل والخارج؛ في المنزل وعلى الطريق؛ في الغائب والحاضر؛ في الوطن وفي المنفى؛ تندمج في كل واحد - إنها الشظايا في بوتقة واحدة.

ويصبح الكل المكوّن من ازدواجيات متزامنة تجسداً للمثنى. هكذا يمكن لهذا الثنائي غير القابل للاتفاق، والمتنافر في أغلب الأحيان، أن يتعايش في شكل واحد، فيما يشبه إلى حد كبير "أنا" آدم دنون في رواية الياس خوري: "أنا" غيتو اللد، و"أنا" غيتو وارسو، اللذان يعيشان معاً في داخله. وقبل ذلك، بين لنا محمود درويش كيف انفصلت "أنا" عن نفسها وأصبحت "أخرى" ليتم اكتشافها وإعادة اكتشافها من طرف الذات بتعدياتها كافة. وقبل ذلك بوقت طويل، ضرب امرؤ القيس، الشاعر الملك الضليل، في الأرض، وقسم "أناه" إلى اثنين.

العودة كلمة في حركة وانتظار

يُلْتَقَط الاضطراب الذي يغلي تحت الرماد في ثنائي العودة في الحركة والعودة في الانتظار في اسم "يُعاد" * الذي يدمج في الوقت نفسه بين فعلين مختلفين نوعياً، مثل شريط فيديو في حالة إعادة التشغيل الثابت، وكتاب مكتبة في طور إرجاعه إلى الرفوف. لقد حُملت وخزات اضطراب العودة في الحركة والانتظار عبر الأجيال، مع تكرار "يُعاد" الثاني العودة في حالة الحركة، فقط ليتم إرجاعها إلى غرف انتظار العودة في الانتظار. كم ستمر بعد مثل هذه الـ "يُعادات"، ومثل هذه العودات الملتوية والتكرارات والأجيال في غرف الانتظار؟ في فضاء الانتظار، تدير حركة العودة عجالات التكرار. إعادة خلط وإعادة نظر وإعادة تفكير وإعادة توزيع وإعادة ترتيب لأجزاء القصة الفلسطينية إلى أشكال جديدة، وقوامات جديدة، ومزيج جديد من التفصيلات. ومن خضخضة التكرار يظهر الابتكار، وتولد إبداعات مكررة مهمة وحقيقية بمثل أهمية وحقيقة الإبداعات المكررة السابقة، وأحياناً أكثر أخلاقية وديمقراطية.

وفي هذه القافلة من الانتظار في الحركة، يتحول التكرار إلى صفة جمالية أساسية. يقول درويش في قصيدة "طباقي" التي رثى فيها إدوارد سعيد: "ليس الجمالي إلا بلوغ الملائم". في هذه القافلة غير العادية للحاضر الأبدي هل يمكن بلوغ توازن جمالية الملائم؟ في الفضاء السلبي الكَمَد للكلمة في الحركة والانتظار، تولد القصة الفلسطينية. إنها حكاية على شفير

* شخصية في رواية إميل حبيبي: "الوقائع الغريبة لاختفاء سعيد أبي النحس المتشائل".

الاستحالة، قصة على حافة القصص، وسرد على حافة التاريخ. تنسج العودة التعددية والتكرار مع الاتزان، فتعطي القصة الشكل الوحيد الذي عرفتته.

كي نعود

يتطلب الاتزان التوازن. سيميل الميزان يوماً، وستفيض طبقات القافلة وتنسكب خارج الفضاء السلبي. وكي تحقق العودة طموحاتها الشفوية بحركتها الكاملة، ستحتاج إلى أن يحل نسيجها الطباق في إطار القصة التي بدأت في سنة ١٩٤٨. والقافلة المغادرة ستعود، وإن تغيرت كثيراً. إنها العودة إلى المكان والزمان؛ العودة إلى التاريخ؛ العودة من الموقت إلى الدائم، ومن الحاضر الأبدي إلى الماضي والمستقبل. بعبارة أخرى، العودة من الجوهر الشعري إلى الجوهر، ومن النسيان إلى "ما نريد أن نكون"، كما قال الشاعر. وفي إطار قصة "ما نريد أن نكون"، ستبدأ قصة أخرى. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

آفاق بترول شرق المتوسط

تحرير: وليد خدوري

١٥١ صفحة ٨ دولارات